التدبيج في شعر فوزي عيسى
دراسة بلاغية ونقدية

للدكتورة / عـزة أحمـد مهدي علي
أستاذ البلاغة والنقد المساعد - جامعة الأزهر
والأستاذ المشارك بكلية العلوم والآداب – جامعة القصيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعلمين، وعلى آله وصحبه الغر الميامين، وبعد.....

فسبحان الله العظيم الذي علم الإنسان ما لم يعلم، دعانا إلى التأمل في الكون,وفي ما خلق من إنسان وحيوان ومن نبات وجماد كي نفكر ونعقل، وقد ذكر الله تعالى في محكم آياته بعضاً من الألوان التي تعتبر ألواناً طبيعية أو ألواناً أساسية مثل الأحمر والأصفر والأزرق، كما ذكر بعضا من الألوان الثانوية مثل الأخضر والأسود، وهما من الألوان المركبة ليدل بذلك على تعدد الألوان قال تعالى: ﴿ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ ﴾(٢) وقال تعالى: ﴿ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ ﴾(٣)، وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ .. ﴾(٤) وقال تعالى: ﴿ ..وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ.. ﴿١٨٧﴾ ﴾(٥) وقال تعالى: ﴿ ..وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ ﴾(٦)وقال تعالى: ﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾(٧) فجملة (مختلف ألوانه) عامة ليوحي بتعدد ألوان النبات والحيوان فتكون عبرة وعظة وتذكرة.

وإن لغتنا العربية – وخاصة عندما تصاغ في صورة شعرية – تتميز بالجمال والكمال، وتمثل قمة الإبداع اللغوي، لما تحويه من غنى عظيم في مفرداتها

(١) البقرة آية ٦٩
(٢) الروم آية ٥١
(٣) المرسلات آية ٣٣
(٤) آل عمران آية ١٠٦
(٥) البقرة آية ١٨٧
(٦) فاطر آية ٢٧
(٧) النحل آية ١٣

وإتقان محكم في تراكيبها، وزخرف أخاذ في أشكالها، وجمال موسيقي في جرسها. (١)

والشعر نشاط روحي ولكنه وثيق الصلة بحركة الزمن; فهو بطيء الحركة ومنبسط حين يبطئ الزمن وينبسط, وهو متغير ومتطور ومكثف حين يزداد إيقاع الزمن سرعة وكثافة، وقد عرف الشعر العربي على امتداد مسيرته حركات تجديدية متنوعة بدأت من العصور الأولى لتاريخ هذه الأمة وتحركت دوما لتساير حركات فكرية واجتماعية ظهرت في حينها. وكان الشعر يأتي وسط هذه الحركات أو الثورات ليتفاعل معها وتكون له رؤيته المتفردة والمعبرة.

وظهر مع مجيء العصر الحديث العديد من المناهج الفكرية والسياسية والاجتماعية، وواكبت هذه المناهج حركة شعرية عُرفت باسم " الشعر الحر"(٢) ظهرت على يد مجموعة من الشعراء الرواد في أواخر الأربعينات، وكان أبرز ما لفت أنظار المتابعين لهذا التجديد هو شكله الموسيقي (٣)، وبعيدا عن التعصب ضد هذا الشعر أو التعصب له، حاولت أن أقترب منه في حذر من خلال أحد الفنون البلاغية – التي يغفل عنها كثير من البلاغيين رغم ثراء دلالاتها – وهو (فن التدبيج)، واتخذت ممثلا ورمزا من رموز هذا اللون من الشعر – وهو الشاعر فوزي عيسى – لسببين:

---

(١) فن البديع – د/ عبد القادر حسين ص ٩

(٢) ويطلق عليه تسميات عديدة في بداية نشأته منها: الشعر الجديد، الطلق، المنطلق، الحر، المرسل، الشعر التفعيلي ولعل تسميته بالشعر التفعيلي أو شعر التفعيلة ؛ لأن التفعيلة هي أساس الوزن في الشعر الحر. فهو يعتمد على التفعيلة بوصفها وحدة موسيقية له تطول وتقصر حسب الدفقات الشعورية فتأتي متنوعة متغيرة تارة، وتأتي متحدة في بعض السطر تارة أخرى وقد تتحد في القصيدة كلها إذا تطلبت ذلك الرؤية الفنية للشاعر... ينظر: موسيقا الشعر العربية بين القديم والجديد – د/ عزة محمد جدوع ص ٤٦٨

(٣) ينظر: دراسات نقدية في شعرنا الحديث – د/علي عشري زايد ص ٩٦

أولهما: وجوده حيا بيننا، حيث ينتمي إلى أعضاء هيئة التدريس بكلية الآداب جامعة الإسكندرية، وهو بحكم تكوينه العلمي والثقافي، وبحكم منهجه الفكري والشعري يعد – من وجهة نظري – أنموذجًا يصلح للدرس والتحليل من خلال شعره، إذ عمل الشاعر والجيل الذي ينتمي إليه على تأصيل الشعر المعاصر، ودعم مسيرته، وقد كان له صوته الشعري البارز الذي نجح من خلاله في ربط الحاضر بالماضي وعدم التخلي عن تراثنا العربي الأصيل.

ثانيهما: الثراء الدلالي للألوان في شعره، حيث استطاع الشاعر أن يشكل عالمه اللغوي في أطر غير مألوفة وأن يجدد في معانيها، أو كما لاحظ الدكتور محمود الحسيني أن الشاعر لا يقف عند حدود المفردات المعجمية التأليفية، بل يسعى على استخدام الألفاظ بدلالات متعددة تضفي على النص روحا وحياة [1]، وهو ما نادى به أصحاب الديوان وجماعة أبولُّو من قبل.

فرأيت أن أجمع همتي وأستقصي الألوان مستنبطة دلالاتها في شعر فوزي عيسى ومتخذة من المنهج التكاملي سبيلا لإبراز اللون ودلالاته على نفس الشاعر، وعلاقة ذلك بالبيئة والمجتمع.

ولأهمية البحث في إثراء المكتبة البلاغية، بتعميق الدراسة لهذا الفن البديعي، وإلقاء الضوء على ما وصل إليه في شعرنا المعاصر. كان هذا البحث على الوجه التالي:

- المقدمة، ثم التمهيد ويتناول مطلبين:

١- مدخل إلى حياة الشاعر، وأهم المؤثرات في تكوينه الإبداعي عامة وفي الشعر خاصة.

٢- التعريف بفن التدبيج.

(١) ينظر: جريدة الأهرام بتاريخ ١١ نوفمبر لعام ١٩٩٧م

- الدراسة التطبيقية، وتشمل : حصرا إحصائيا للألوان في أعمال الشاعر الشعرية، مع بيان فعاليتها في النص ودلالتها الإيجابية والسلبية ؛ حيث تكشف مفردات اللون عن طبيعة تعامل الشاعر مع عالمه الطبيعي والواقعي، ومع موروثه اللغوي والاجتماعي، كما أنها تسهم في الكشف عن جوانب من تجربة الشاعر ورؤيته.
- الخاتمة.. وفيها أهم ما توصل إليه البحث.

أما عن مادة البحث فتتكون من خمسة دواوين هي:

١–أحبك رغم أحزاني عام ١٩٨٦م.

٢–٢– لدي أقوال أخرى عام ١٩٨٩م.

٣–ثقوب في ذاكرة النهر عام ١٩٩٧م.

٤–لغة بلون الماء عام ٢٠٠١م.

٥–آخر القابضين على الجمر عام ٢٠٠٩م.

وقد نشرت هذه الدواوين الخمسة في مجلد واحد تحت عنوان الأعمال الكاملة عام ٢٠١٠م عن مكتبة المعارف بالإسكندرية.

التمهيد

١- مدخل إلى حياة الشاعر وأثرها في إبداعه:

- **نشأته** [١]:

هو الشاعر فوزي سعد محمد عيسى،ولد عام (١٣٦٩هـ/١٩٤٩م) بمدينة حوش عيسى التابعة لمحافظة البحيرة، وتمتاز هذه المدينة بطبيعتها الريفية الهادئة حيث تكثر فيها الحقول والأنهار وأشجار الصفصاف التي يذكرها الشاعر كثيرا في شعره.

وقد نشأ الشاعر في أسرة مهتمة بالأدب، فكان عمه الأديب " حمدي عيسى" من أكبر شعراء وزجالي محافظة البحيرة، وكان يمتلك مكتبة أدبية ضخمة، كما كان يقيم منتدى أدبي يؤمه الشعراء والأدباء.

وفي هذا الجو الأدبي المفعم بالألفة العائلية نشأ الشاعر متأثرا بشخصية عمه الأديب تأثرا كبيراً، فكان يلازمه معظم الوقت ويتلقف عنه أخبار الشعراء والأدباء التي كان يحفظها ويرويها، فكان لهذا الجو الأدبي أثره الكبير في تفتح موهبة الشاعر في وقت مبكر، حيث ارتجل الشعر للمرة الأولى أمام مدير المدرسة الثانوية بدمنهور، أبدى فيه رغبته في الالتحاق بالقسم الأدبي[٢] فقال:

إليك ألملم ثوب الرجاء ولا أبتغي غير نيل الطلب
فأنت الذي يستنزل الصعاب وأنت الذي يسعد المكتئب

---

(١) ينظر ترجمة الشاعر في: – معجم البابطين للشعراء العرب المعاصرين ٣/ ٨٣٠ – ٨٣١ – ط١/١٩٩٥

– معجم الأدباء من العصر الجاهلي حتى سنة ٢٠٠٢ م – ٤/٤٦٤، ٤٦٥ – ط١ ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م

– معجم أدباء مصر – مسعود شومان – الدورة ال١٩ لمؤتمر أدباء مصر الأقصر ٢٠٠٤ م ص ٢٧٢/ ٢٧٣

(٢) ينظر شعر الدكتور فوزي عيسى الرؤية والإبداع – للدكتور رزق عمري بركات ص ١٥

ولا أبتغي من حنان الحياة سوى الالتحاق بقسم الأدب

وقد عرف بتفوقه ونبوغه، وكان من أوائل الثانوية العامة في محافظته، كما كان أول دفعته بقسم اللغة العربية بكلية الآداب جامعة الإسكندرية.

عين فوزي عيسى معيداً بالقسم سنة ألف وتسعمائة واثنان وسبعين، ثم أتم رسالة الماجستير سنة ألف وتسعمائة وخمسة وسبعين برسالة عنوانها " الشعر العربي في صقلية " بتقدير ممتاز.

وبعد تسجيله لدرجة الدكتوراه في موضوع " الشعر الأندلسي في عصر الموحدين " سافر في بعثة علمية إلى أسبانيا لجمع المادة العلمية، وتعرف هناك على معالم الحضارة الأندلسية في قرطبة وغرناطة، ثم عاد ليحصل على درجة الدكتوراه بمرتبة الشرف الأولى.

عين مدرسًا للأدب العربي بالكلية سنة ألف وتسعمائة وثمانية وسبعين، ثم تدرج في الوظائف التدريسية بالجامعة فعين أستاذاً مساعدًا سنة ألف وتسعمائة وأربعة وثمانين، ثم رُقي إلى درجة أستاذ سنة ألف وتسعمائة وتسعة وثمانين، ثم عُين رئيسا لقسم اللغة العربية سنة ألف وتسعمائة وثمانية وتسعين، واختير عضوا بلجنة ترقية الأساتذة، كما اختير عضوا بالجمعية الأيبيرية للدراسات الأندلسية بالبرتغال، كما اختير عضوًا للدراسات الأدبية بالمجلس الأعلى للثقافة، وعضوًا باتحاد كُتاب مصر.

أعير للمملكة العربية السعودية – جامعة الملك عبد العزيز – من عام ألف وتسعمائة واثنين وثمانين إلى عام ألف وتسعمائة وست وثمانين، ثم أعير لنفس الجامعة مرة أخرى عام ألف وتسعمائة وواحد وتسعين.

هذه هي أهم الأحداث التي صاحبت نشأة الشاعر ومراحل نموه، وهي أحداث غنية بالمواقف والملابسات الحياتية والاجتماعية مثلها مثل حياة كثير من شعب هذا الوطن العزيز، إلا أنها لدى الحس الشاعر، والموهبة الحقيقية

الحية، تكون لها أعظم الأثر في تكوين شاعريته وإيقاظ موهبته الفنية وصقلها.

- **العوامل المؤثرة في التكوين الشعري للشاعر فوزي عيسى:**

لا يولد المبدع عموما مبدعاً، ولكن يولد وبداخله ملكة واستعداد فطري يساعده على تصوير ما يريد، وهذه الملكة هي المكون الرئيسي لشخصية المبدع، وتمثل العنصر الذاتي أو الذوقي له، وتشكل مع العنصر الموضوعي الشخصية المبدعة في عمومها، والعنصر الموضوعي يتكون من مجموع الصفات والخصائص الفكرية والاجتماعية والسياسية والدينية التي يحيا في ظلالها الشاعر أو المبدع. (١)

والشاعر فوزي عيسى كغيره من الشعراء الذين عاشوا حياتهم في ظلال بيئية وثقافية كان لها أثرها في تشكيلاته الشعرية، ومن هذه المؤثرات:

١- **البيئة ومنها:**

أ- البيئة الريفية: وهي البيئة الأولى التي تفتح فيها الشاعر، حيث نشأ في مدينة هي أقرب للريف منها إلى المدينة حيث الحقول والأنهار وأشجار الفاكهة وغيرها، وتكثر الصور الريفية في شعر الدكتور فوزي عيسى بألوانها المختلفة ومنها قوله مصورًا محبوبته بمظاهر الطبيعة الجميلة:

فأنت الواحة الخضراء بعد مشقة السفر
وأنت الروضة الغناء تؤتي أطيب الثمر(٢)

ويقول:

أحسبته أضحى لديكِ رهينةً
يحيا أسير الورد في خديكِ(٣)

(١) ينظر شعر فاروق شوشة بين الرؤيا والإبداع – للدكتور/محمد السيد سلامة ص ١٨ – ط٢٠٠٢م

(٢) ديوان: أحبك رغم أحزاني ص ٨٠

(٣) من قصيدة: ثورة قلب/الديوان السابق ص ٧٢

والشاعر فوزي عيسى يتفاعل مع صور الطبيعة تفاعلًا صادقًا، يستمد منها أجمل الصور، وأروع الألوان الموحية.

ب–البيئة الحضرية:

فكما أثرت البيئة الريفية في شعر فوزي عيسى كان للبيئة الحضرية أثرها البارز ؛ حيث أكسبته الحياة في مدينة الإسكندرية كثيرا من رقة المشاعر، بالإضافة إلى الإعجاب بالمدينة التي تغني بجمالها، وأفرد لها قصيدة بعنوان " الإسكندرية دائما " ذكر فيه عشق البحر لها، ومدى حبه لتلك المدينة الجميلة التي تحولت إلى معشوقة تذهب عنه الملل وتبدد ليل الأسى والحزن فيقول:

على عهده بالهوى لم يزل
يهيم بها البـــحر منذ الأزل
فيطوي المسافات شوقا إليها
ويسمعـــها وشوشات الغزل

وقد أصبح البحر من الرموز التي تتردد بكثرة في شعره، وبخاصة في ديوانه الثالث " ثقوب في ذاكرة النهر " حيث جعل البحر رمزًا لعالمه الجميل المتخيل الحافل بالبهجة والسعادة ومن ذلك قوله في قصيدة تجليات النورس الأزرق:(١)

كل هذا الفضاء يُفضي إلى الزرقة
كـــل لـــونٍ يســـابق الـــــــريح..
وحـــدك الآن ســـــيد المـــــــاء
هـــــذه كائنـــــــات مملكة البحـــر

فالشاعر هنا يصور علاقة النورس بالبحر، فالنورس هو الشاعر والبحر عالمه الرحب الذي يتميز بالصفاء والنقاء والرحابة والجمال. (٢)

ج– البيئة الخارجية:

(١) ديوان ثقوب في ذاكرة النهر ص ٧١
(٢) ينظر شعر دكتور فوزي عيسى الرؤية والإبداع – للدكتور رزق عمري بركات ص ٢١

ويُقصد بالبيئة الخارجية هنا سفره أولا إلى أسبانيا حيث عاش بها فترة من الزمن كان لها أثرها الواضح في شعره، فنقرأ قوله في قصيدة (الطريق إلى طليطلة) (١):

لا شيء يفتديك إلا أن يعود طارق
فيجمع الكتائب المهلهلة
ويحرق السفائن التي تآكلت
ويشعل الحماس في المقاتلة

كما تأثر الشاعر بالبيئة السعودية التي أعير للعمل بها أستاذا للأدب العربي في جامعة الملك عبد العزيز، واتصل بالحياة الأدبية هناك، وقد عبر الشاعر عن مدى تأثره بهذه البيئة من خلال تجربة واقعية عاشها فيقول في قصيدة (انطباعات عن مدن الملح): (٢)

حاصرتني مدائن الملح،
روعتني بصمتها،
موشحاتٌ بيوتها كالقبور
نائماتٌ نساؤها في الخدور...

ثم يكمل قائلاً (٣):

لا تبصر عينك غير الموتى والعرجانْ
والبُلْه ومقطوعي الألسُنْ

إن الشاعر في قصيدته يرمز بمدن الملح إلى السلبية التي تعيشها مدن معينة يرفضها الشاعر ويرسم صورة بيوتها الموحشة كالقبور، ومشاهد الخوف، والظلام المحيط الذي عبر عنه باللون الأسود الذي ينتشر في كل مكان، وفي ختام

(١) من ديوان: لدي أقوال أخرى ص ٢٧، ٢٨
(٢) من ديوان: ثقوب في ذاكرة النهر ص ٣٥، ٣٦
(٣) السابق ص ٤١

قصيدته يؤكد رفضه لهذه المدن الملحية، ويؤكد أن الداخل فيها يفقد ذاته، كما أن الخارج منها لن يعود كما كان حيث يقول [١]

إلـــــــــــــــــــزمْ دارك
لا تقـــــــــــرب مـــدن المـــلـح
فتفقـــــــــــــد ذاتـــــــك
فالـــداخـــــل فيـــها مفقـــودْ
والخـــــــارج منهـــا مفقـــــودْ

٢ – <u>المؤثرات الفكرية:</u>

ويُقصد بها الممارسات والمكتسبات الثقافية والشعورية، التي شكلت وجدان الشاعر الفكري، وأسهمت في الإيحاء برؤاه، وهذا المؤثر من أهم العناصر، لأن مدلوله يمتد ليشمل العناصر أو المؤثرات الأخرى مثل الوعي الاجتماعي أو السياسي أو الديني[٢]. ومن العناصر التي أسهمت في التأثير على إبداع الشاعر: القراءة، والأسفار والرحلات المتمثلة في المؤتمرات الخارجية والداخلية، حيث تشكل القراءة المكون الرئيس في هذا المؤثر من خلال المكتبة الضخمة التي أتاحها له عمه الأديب حمدي عيسى الذي وجهه على قراءة المصادر الأدبية ودواوين الشعر، ثم الثقافة الأدبية الواسعة التي تهيأت له بحكم تخصصه الجامعي باعتباره أستاذًا للأدب العربي.

وقد تحدث الشاعر في بعض الحوارات الصحفية عن المحاور البارزة في شخصيته الأدبية، وعن أفكاره العلمية وأساليبه في تناول الإبداع الشعري والنقدي، وأثر الصحافة في حياته الأدبية[٣]، كما كان لأسفار الشاعر ورحلاته العديدة إلى

(١) السابق ص ٤٤
(٢) شعر فاروق شوشة بين الرؤيا والإبداع – للدكتور/ محمد السيد السلامة ص٢٩ ط٢٠٠٣ م
(٣) يراجع حوارات الشاعر في:

البلاد العربية أثر كبير في تكوينه الأدبي، حيث ألف أثناء إعارته للمملكة العربية السعودية كتاباً بعنوان: " الشعر السعودي المعاصر " كما سافر للمشاركة في مؤتمرات أدبية في لبنان وسوريا والإمارات والجزائر والمغرب.

وبهذه الإطلالة الموجزة لحياة الشاعر ندخل إلى الفن البديعي الذي برز في كتابات الشاعر الشعرية، وكان لها دلالتها المميزة.

٣- **فن التدبيج**:

الدَّبْج: النقش والتزيين [١] مادته (الدال والباء والجيم) أصل واحد يدل على شيء ذي صفحة حسنة [٢]،وعرفه ابن معصوم المدني بأنه مشتق من الديباج وهو ثوب سداه ولحمته إبريسم، وهو معرب " ديبا " بدون الجيم، ثم كثر حتى اشتقت العرب منه فقالوا: دبَّج الغيث الأرض دبجًا وتدبيجًا إذا سقاها فأنبت أزهارًا مختلفة لأنه عندهم اسم للمنقّش[٣]، وهي على هذا النحو من المجاز عند الزمخشري[٤].

– جريدة اللواء العربي، قسم واحة الأدب (محمد هالوص) ص ١٠، العدد ٢٠٨، الأربعاء ١٣/ ١٢/ ٢٠٠٠م

– جريدة ملتقى الأدباء (محمد هالوص)، البحيرة ص ١٠، الأحد ٢٠٠٠/٣/٥ م/٢٨ /١١ /١٤٢٠ هـ

– جريدة عكاظ، السعودية (علي مكي) ص ١٨، قسم ثقافة العصر، العدد ٩٤٧٧ الخميس ٩ يوليو ٩/٩٩٢ محرم ١٤١٣هـ

(١) لسان العرب مادة (دبج)

(٢) والديباجتان: الخدان/مقاييس اللغة لابن فارس مادة (دبج)

(٣) ينظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها للدكتور/أحمد مطلوب ٢/ ١١٧ مطبعة المجمع العلمي العراقي ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، المعجم المفصل في علوم البلاغة (البديع والبيان والمعاني) للدكتورة/إنعام فوال عكاوي مراجعة أحمد شمس الدين/ط١– ١٤١٣هت م ١٩٩٢م – دار الكتب العلمية– بيروت – لبنان

(٤) أساس البلاغة للزمخشري ١/ ٢٢٧

والتدبيج في اصطلاح البلاغيين هو: أن يُذكر في معنى من المدح أو غيره ألوانٌ بقصد الكناية أو التورية. (١)

وعليه فهناك علاقة بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي ؛ حيث يدل الأول على النقش والتزيين القائم على الأصباغ والألوان، وهو أيضا ما تقوم به الألوان في الشعر أو في النثر بقصد الدلالة على معان أخرى يقصد إليها الكاتب أو الشاعر.

ومن الجدير بالذكر أن نشير إلى أن أبا الأصبع المصري (٥٨٥- ٦٥٤) أول من أطلق اسم (التدبيج) على هذا الفن بل جعله من مخترعاته. (٢) كما جعله مستقلا عن الطباق، وعرفه بأن: يذكر المتكلم ألوانًا يقصد الكناية بها والتورية بذكرها عن أشياء من وصف، أو مدح أو هجاء أو نسيب، أو غير ذلك من الفنون، أو لبيان فائدة الوصف بها كقوله تعالى: ﴿..... وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٌۢ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾﴾(٣).

وذكر الدكتور حفني شرف، والدكتور أحمد مطلوب أن الفضل في ذلك يرجع إلى ابن سنان الخفاجي في سر الفصاحة ولكنه سماه (المخالف) حيث يقول:" فأما – المخالف – وهو الذي يقرب من التضاد فكقول أبي تمام:

تردى ثياب الموت حمرًا فما أتى لها الليل إلا وهي من سندس خضرُ

فإن الحمر والخضر من المخالف، وبعض الناس يجعل هذا من المطابق.

(١) الإيضاح للخطيب القزويني ضمن شروح التلخيص ٢٩٣/٤
(٢) السابق، وينظر تحرير التحبير ص ٩٤ تحقيق الدكتور حفني محمد شرف
(٣) سورة فاطر آية ٢٧ – بديع القرآن ص٢٤٢ تقديم وتحقيق حفني محمد شرف

وكذلك قول عمرو بن كلثوم:

بأنَّـــا نـــورد الرايـات بيـضًا ونصـــدرهن حـمـــرًا قـد رووينا

وقول الوليد بن عبيد البحتري:

وإلا لقيـــتُ الموتَ أحمـر دونه كمـا كـان يلقى الدهر أغبر دوني

ثم يقول: والصحيح أنهم يعتبرون في التضاد استعمال الألفاظ، والأحمر والأبيض ليسا بضدين على عُرفهم، وإنما ضدَّ البياض السواد على ما ذكرناه آنفا "[1]

وقد نفى الدكتور مصطفى الجويني – وأوافقه الرأي – الشبه بين التدبيج عند ابن أبي الإصبع والمخالف عند ابن سنان، وإن جمع بينهما استخدام الألوان ؛[2] ذلك لأن الألوان عند ابن سنان تأتي لغرض التضاد، ولا يكون إلا بين الأبيض والأسود، أما عند ابن أبي الإصبع فالألوان زينة لذا يستخدمها جميعا بغرض الكناية أو التورية.

واستنبط الدكتور عبد المنعم الأشقر من قول ابن سنان حقيقة مهمة وهي: قِدَم التقابل بين الألوان في الكلام الفصيح، حيث يعود إلى ما قبل ابن سنان، وهم (أصحاب صناعة الشعر) [3] الذين سموا ما كان قريبا من

(١) سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي ص ٢٠٤

(٢) ينظر ملامح الشخصية المصرية في الدراسات البيانية ص ٥٣٧ للدكتور مصطفي الجويني، نظرات في علم البديع ص ٦٨ للدكتور عبد المنعم سيد الأشقر

(٣) من أشهرهم: أبو هلال العسكري ت٣٩٢هـ فاسم كتابه الصناعتان: الشعر والنثر،وخاله أبو أحمد العسكري وكتابه: صناعة الشعر، ويستشهد أبو هلال لهذا بتقابل (الشتم و المديح) في قول الحطيئة:

وأخت أطرار الكلام فلم تدع شتماً يضر ولا مديحًا ينفع

التضاد بالمخالف، حيث يقرر على عرفهم أن الجمع بين السواد والبياض من الطباق أو التضاد، أما الجمع بين السواد والبياض من جهة وبين أي لون آخر غيرهما فيعد من المخالف، وإن كان ذكر أن بعضهم يعد هذا من المطابق أيضاً [١].

هذا.. وقد جعل ابن أبي الإصبع المصري وآخرين [٢] هذا الفن مستقلا عن الطباق، مشترطاً قصد الكناية أو التورية، وأورد أكثر شواهده من التدبيج بالكناية، ولم يذكر من تدبيج التورية سوى قول الحريري: "فمذ ازور المحبوب الأصفر، واغبر العيش الأخضر، اسود يومي الأبيض، وابيض فودي الأسود حتى رثى لي العدو الأزرق فيا حبذا الموت الأحمر " فقوله: المحبوب الأصفر تورية يراد به معنيان: قريب وهو الإنسان الموصوف بالصفرة، وبعيد وهو الذهب، أما باقي قول الحريري فهو من الكناية. [٣]

أما الخطيب القزويني فقد سار على نهج ابن سنان ومن قبله في إدراج التدبيج في آخر كلامهم عن المطابقة، مع قصد الكناية أو التورية في المدح أو الوصف وغيرها، وهذا ما دعا الدكتور عبد القادر حسين يتساءل بعد أن أورد قول أبي تمام: تردى ثياب الموت.....

قال: والهجاء ضد المديح، فذكر الشتم على وجه التقريب، ينظر نظرات في علم البديع ص ٧٠، الصناعتين لأبي هلال العسكري ص ٣٢٥

(١) ينظر نظرات في البديع ص ٦٩

(٢) منهم: العلوي في طرازه ٣/ ٧٨، والسيوطي في إتقانه ١١٥/٢، وصفي الدين الحلي، ابن معصوم المدني (ينظر، نظرات في البديع ص ٦٧)

(٣) ينظر حاشية الدسوقي ضمن شروح التلخيص ٤/ ٢٩٣، بغية الإيضاح ٤/ ٩

يقول: لِم عُد هذا من البديع رغم أنه كناية ؟، وإذا كان يحمل معنى الكناية فلماذا لم يوضع في علم البيان ؟ ويرى أن الحدود الفاصلة بين النوعين غير واضحة تماما والاضطراب في المفاهيم ما زال قائماً[1].

وأقول: إن التدبيج زينة ونقش، وهو ما تحققه الألوان والأصباغ، والبديع: علم يقصد به إلى تحسين الكلام وتزيينه ولا مانع أن تؤدي الألوان دورًا في هذا التحسين،ولذا جاز أن يكون هذا الفن ضمن علم البديع مع قصد التورية، فيطلق اللون بمعنيين: قريب وبعيد ويراد البعيد منهما.

أما الكناية فهي: لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادته معه[2].

فاللون (لفظ) يذكر ويراد به أحيانا الحقيقة إذا ذكر مفردًا أو على سبيل التطابق بين الأبيض والأسود، وأحيانا التورية فيكون في البديع، وأحيانا أخرى يذكر بغرض لازم معناه فيكون كناية، فالتعامل مع اللفظ لونا كان أو غيره إنما يكون حسب ما يقتضيه المقام والحال.

ولكني أعجب من إدراج التدبيج ضمن الطباق، لأنه يحصرنا في ضرورة ذكر لونين أو أكثر، وحينئذ لا معنى لاشتراط كونه تورية أو كناية،مادام تحقق شرط التعدد.

وأرى أن نتعامل مع الألوان على أنها زينة تدل على معنى يرمز إليه الشاعر أو الكاتب فإذا جاءت على حقيقتها فقد زينت النص، وأضفت عليه البهجة، وإذا كانت للتورية أو الكناية فلها مدلولاتها التي يستنبطها الناقد الذائق للنص في محاولة للكشف عن مكنون الكاتب أو الشاعر، فقد طالت الألوان كل مناحي حياتنا المعاصرة، وتحولت إلى وسيلة إغراء وإثارة،

(١) ينظر فن البديع ص٣٥
(٢) الإيضاح مع البغية ٣/ ١٥٠

وإلى لغة مُوحية تعبر عن نفسها بما تحمله من رموز، ومدلولات تتباين باختلاف الألوان وتأثيراتها، وصار للّون وظيفته في كل الأصعدة والمجالات، فدخلت الألوان مثلا عالم" الطب النفسي"، واستُخدمت لعلاج بعض الحالات النفسية المستعصية.

التدبيج في العصر الحديث

إن الدارس للتراث العربي، يلحظ أن قاموس الألوان شديد التنوع والثراء؛ وقد استعملت الألوان في كل ذلك للدلالة على معانٍ نفسية، وفكرية، وفلسفية يمكن لنا إذا ما اجتهدنا أن نؤسس من خلالها رؤية خاصة نابعة من عمْق تراثنا، وحضارتنا بعيدا عن الاستلاب الغربي الذي نجح في التحكم في أذواقنا الجمالية اللونية.

والألوان جزء مهم وحيوي يعبر عن شخصية الإنسان بشكل ما، حتى ليمكن معرفة الشخص من لونه المفضل، وهي دراسات علمية نفسية لها أهميتها التي لا يمكن تجاهلها، إنها تُضفي على الأشياء جمالًا وسحرًا أخّاذًا، ممّا يبعث على البهجة والمتعة البصرية؛ ولنا أن نتصور العالم من حولنا مجرّدًا من الألوان، سيكون منظره بلا شكٍّ مثيرًا للكآبة والملل،دون هذا الكم اللوني الهائل من حولنا والذي يشكل المصدر الأول للجمال،لذلك لا نبالغ إذا قلنا بأن الألوان " فاكهة العين".وعلينا أن نولي هذا الأمر الأهمية التي تليق به في مجال الأدب ؛ لمواكبة ركب التطور الذي يطير بسرعة الصوت..

ألفاظ الألوان ومصادرها ودلالاتها عند العرب

استوحت العرب كثيرًا من ألفاظ الألوان – وتلك ظاهرة عامة في اللغات – من المصادر الطبيعية، والمعادن، والنباتات، والموجودات المحيطة بهم،

والمشاهدات الحسية في البيئة التي عاشوها، وللدكتور أحمد مختار عمر بحث قيم في هذا المجال [١].

وإذا كان اللون أظهر خواص الطبيعة، وكان الشاعر يعتمد على الحواس في تكوين صورته الفنية، فلا بد أن يتعامل مع اللون، وبالطبع يكون لهذا التعامل طبيعة خاصة تختلف عن طبيعة تعامل الرسام الذي يستخدم الألوان الحسية، فالشعر يحول اللون المرئي إلى لفظة حاملة له، قادرة على تفجير الإحساس به

وقد ولج اللون في الشعر العربي الحديث بدلالات متعددة ومختلفة، ومرجعيات فكرية، واجتماعية وثقافية ونفسية، فحين ابتعد عن محوره البصري ليلامس المنظومة الصوتية التي تحكم الشعر ومختلف اتجاهات الأدب الأخرى ؛ بدا اللون الواحد عند شاعر ما مختلف الدلالات من قصيدة إلى أخرى، ومن مرحلة تاريخية إلى أخرى.

وقد جعلت الذاتية (وهي أهم سمات الرومانتيكية) اللون أكثر صلة بذات الشاعر الذي يعالج قضايا متنوعة في النص الشعري يجعل من اللون عنصراً هاما من عناصر بنية النص ليعبر من خلاله عن واقع الأمة، والمرأة، والاغتراب، والموت، والقلق، والوحدة إلى غير ذلك مما يهم الشاعر الرومانتيكي، لذا صار اللون عنصرا حيويا من خلال طاقاته الإيحائية والفكرية والرمزية.

وينبغي الإشارة إلى أن نقاد العصر الحديث لا يطلقون (التدبيج) على ما يرد من ألوان في النصوص الشعرية، وإنما جعلوها ألوانا على سبيل التشبيه أو الكناية أو التورية دون ذكر (التدبيج) إطارا عاما يجمعها ، وأرى أن هذا لا يقلل من دلالات اللفظ واستخداماته بل على العكس من ذلك فقد

(١) يراجع ذلك بالتفصيل في اللغة واللون للدكتور أحمد مختار عمر ص ٨٣

اتسعت دلالات الألوان الصريحة، وظلالها التي كثيرا ما يلجأ إليها الشعراء.

ومن هنا فإن وقوفنا أمام الدلالات اللونية لشعر الشاعر ليس بوصفها دلالات اصطلاحية متعارف عليها، وإنما بوصفها انعكاساً لنفسية مبدعها، وتعبيراً عن رؤيته الخاصة للكون والأشياء فهي " ليست مجرد ألوان تراها العين، بل هي ترتبط بأحاسيس وذكريات سارة أو مكدرة، فالأحمر يرتبط بالدم، والأزرق بالسماء، والأصفر بضوء الشمس والصيف، والأسود بالحزن، والرمادي بالخريف أو الاكتئاب"(١).

ويعد التصوير باللون أو الصور اللونية من أكثر الظواهر التعبيرية وضوحاً في لغة الشاعر، كما تشكل مفردات اللون جزءاً واضحاً من معجم الشاعر، ويقدم الجدول في نهاية البحث إحصاء لهذه المفردات في شعره

هذا.. ويمكن تقسيم الألوان إلى ثلاثة أنماط هي (٢):

١- السلسلة الأكروماتية اللالونية ؛ وهي الأسود، والرمادي، والأبيض.

٢- الألوان الأساسية، وهي أربعة: الأحمر، والأصفر، والأخضر، والأبيض.

٣- ظلال الألوان، وهي الألوان الهامشية، وقد اشتمل الجدول على إحصاء مفردات النمطين الأول والثاني، أما النمط الثالث (ظلال الألوان) والتي تضم قائمة متسعة ومفتوحة من المفردات إذ تشمل كل مفردة دلالة لغوية (ليل – نهار – شمس – روض – شجر – حقول – زروع – دم – جمر – نار) وقد أحصيت أكثر مفردات هذا النمط وضوحًا، وأقربها دلالة من اللون الأساسي.

---

(١) الفنون والإنسان لإروين إدمان – ترجمة د/ مصطفى حبيب ص٩١

(٢) ينظر جماليات اللون في القصيدة العربية ص٤٣، ٤٤– محمد حافظ دياب – فصول، مج٥، عدد ٢، مارس ١٩٨٥ م.

وبإحصاء بسيط للألوان في شعر فوزي عيسى تبين أن الغلبة كانت للون الأسود، وأن أقل نسبة كانت مع اللون الأصفر.كما تبين أن الصدارة للون الأسود، ويليه اللون الخضر، ويليهما في الرتبة اللونين الأبيض والأحمر، بينما تأخر اللونان الأزرق والأصفر.

الدلالات التعبيرية للألوان (الأسود، والأخضر، والأبيض):

تشير الغلبة التعبيرية للألوان السابقة إلى الصراع بين الخير والشر، أو المواجهة بين الضياء والظلام، أو بين الصباح والليل، حيث تعكس أغلب القصائد رغبة الشاعر في الانتصار على عالم الظلام، والظلم الذي يرمز إلى الواقع المادي.

وغلبة اللون الأسود تعطي مؤشراً أوليًا على طبيعة إدراك الشاعر لعالمه، وأن جانبا من اختياراته التعبيرية قد وقعت تحت طائلة هذا اللون وظلاله وتداعياته، حتى لتكاد تغطي هذه الاختيارات السوداوية جانبا كبيرا من الواقع الذي يعيشه الشاعر سواء في ذلك الواقع المادي، أو المعنوي.

واللون الأسود "أعمق الألوان " وهو في الحقيقة سلب اللون نفسه.

الأسود هو " لا " المضادة لـ " نعم " الأبيض[١] واللون الأسود هو خير رمز للظلام، ولعدم الطهر، وللحزن، وهو لون الخطيئة والخراب [٢]، وهو لون يوحي بالحزن والخطيئة والظلام والقساوة والصلادة[٣].

وقد جاء هذا اللون في المرتبة الأولى في قائمة الألوان عند علماء الأنثروبولوجيا[٤]، وفي اللغة العربية عشرات الألفاظ التي تصف هذا اللون

(١) اللغة واللون للدكتور: أحمد مختار عمر ص ١٩٥
(٢) اللون – محمد يوسف همام ص ٨ ط ١٩٣٠ م
(٣) الصورة الشعرية والرمز اللوني للدكتور: يوسف حسن نوفل ص ٣٣
(٤) الأنثروبولوجيا: هو علم دراسة الإنسان، وقد ظهر هذا المصطلح في بريطانيا عام ١٥٩٣، وهي كلمة مشتقة من الكلمة الإغريقية أنثروبو (anthropo) أي الإنسان،

ودرجاته ؛ فهم يقولون: هذا أسود وللمبالغة في السواد يقولون " أسود حالك، وفاحم وقاتم وغريب ومصلخم وغرابي وأدجن وأدخن وأدعج وأدلم وأدغم وأسحم وأبخس وبهيم وأسحمان وحانك "[١].

ويتردد استخدام اللون الأسود بظلاله وتداعياته و بدلالاته المباشرة وغير المباشرة في شعر فوزي عيسى مما يعكس نظرته المأساوية للواقع الذي يعيشه هو نفسه، ويعيشه غيره ممن يشاركونه الإحساس بأوجاع الوطن، وهموم الأمة، مما يبرزه في صورة اشتباك دائم مع اللون وما ينسحب عليه ؛ فالواقع عنده محاصر بضباب كثيف، وكل مفرداته تندر بالقتام والسواد الذي هو " نقطة البدء لانكشاف بقية الألوان "[٢] حذف.....

حيث يقول [٣]:

فيشتعل الثلجُ،
ينهمر المطر الأسود،
يرتعد اللون الأخضر،
وتتفتح الأقبية الموصدة،
تَطل جحافل من بوم، وخفافيش،
وأسراب جرادٍ،
تسمل[٤] عين الشمسِ،
فيحتشد اللون الأسودَ، يعلن بدء مواكبهِ

والكلمة لوجي (logy) أي العلم، أي أن الكلمة في معناها اللغوي هي دراسة الإنسان.. ينظر اللغة واللون ص ١٠٧

(١) ينظر: قاموس الألوان عند العرب للدكتور: عبد الحميد إبراهيم (مواطن متفرقة من الكتاب)

(٢) ينظر قراءة ثانية في شعر امرئ القيس للدكتور: محمد عبد المطلب ط١ ١٩٩٦م

(٣) الديوان الثالث: ثقوب في ذاكرة النهر ص ٩٣، ٩٤

(٤) يقال سمل العين سمولا وسمولة أي فقأها، وثوب سمل: خلق بال والجمع: أسمال.. المعجم الوجيز مادة سمل

(يتقوقعُ في هيكله....
يشرب ماء الملحَ،
ويفرز لؤلؤة الظامئَ، للأنهار)

فقد لعب اللون بالخيال ولعب الخيال باللون ؛ فمن خلال استعارة مكنية دقيقة (الثلج يشتعل) موحيًا بانتشار البرودة في أوصال الأمة، واحتراق الطهر والنقاء الذي غلفها قرونا، (وتظهر جحافل[1] البوم والخفافيش، وأسراب الجراد) مؤذنة بانتشار الفساد، وتغلغله بقوة.

ويستخدم الشاعر اللفظة ذاتها (الثلج) على سبيل التورية فالمعنى القريب هو المعروف، والبعيد يرمز إلى صفاء الأمة وطهرها ونقائها ، وتعبر الكناية في (المطر الأسود ينهمر)، (يرتعد اللون الأخضر، (تتفتح الأقبية الموصدة) عن انتشار الفساد،وخوف الصغار، وكثرة القتلى كل هذه الصور العبثية تجعل عين الشمس تسمل، وحينئذ يحتشد اللون الأسود – الذي يجسد الحالة النفسية لمن يعيش في هذا الواقع المرير – وينتصر ويعلن بدء مواكبه، ويتقوقع في هيكله..... وتلك صورة عجيبة، وغريبة تشير إلى الواقع الوطني والقومي من خلال الكناية إما عن اللون ، أو عن انتشار الفساد، أو الشر، أو تغول العدو الغاصب، أو البرودة في عروق الأمة، أو عن انتشار الخوف والرعب في القلوب الصغيرة، وقد صاغها الشاعر باقتدار من خلال اللون وتداعياته.

ونجده في قصيدة أخرى يرسم صورة الحصار اليهودي للأرض المحتلة في فلسطين ؛ ليعبر عن مساوئ الاستعمار، وهي صورة قاتمة يصبح فيها اللون الأسود قريناً لهذا الواقع الذي طال فيه الليل، وعربد القرصان، وروع سرب

(١) الجحفل: الجيش الكثير، ولا يكون ذلك حتى يكون فيه خيل. (لسان العرب)، وتعبير الشاعر بهذا اللفظ مما يوحي بانتشار الفساد وتحطيمه كل طهر ونقاء.. كما تدك الخيل بحوافرها الأرض.

الطيور الآمنة وسود وجه الصباح، وزرع الرعب بجوف الأرض، ووضع الألغام في وجه النهار، وفجَّر الغل عيونا حيث يقول في قصيدة " الحصار"[١].

حاصروهمُ عزل بلا أيّ سلاحْ
روعوا سرب الطيور الآمنة
سوَّدوا وجه الصباح
زرعوا الرعب... بجوف الأرض تنينًا كبيرًا
كحَّلوا عين الصبايا... بالنواحْ
أطلقوا النار على الشمس صباحًا
حين كانت تمنح الدفء لأيتامٍ صغارْ
وضعوا الألغام في وجه النهار
فجَّروا الغل عيوناً
ثمَّ لجوا[٢] في الحصارْ

فترويع سرب الطيور الآمنة كناية عن إثارة الرعب والفزع بين الآمنين العزل من الشعب الفلسطيني. وفي صورة استعارية رائعة لون الشاعر (المعنى) فجعل فعلهم في الشعب لونًا أسود طغى على الوجوه البريئة والنفوس المضيئة المسالمة.

وفي لمسة ساخرة تنطق بالمرارة، وتصور القبح جمالاً، جعل الرعب نباتًا يُزرع، والنواح كحلاً لعيون الصبايا.

ثم أطلقوا النار على الشمس لتحرق الوجوه البريئة المسالمة، ووضعوا الألغام في وجه النهار كناية عن تحول الفرح إلى حزن وكآبة، بل إلى عجز، وتدمير للطموح والآمال.

---

(١) الديوان الثاني: لدي أقوال أخرى ص ٦٧

(٢) لج في الأمر – لجاجًا ولجاجة: تمادى، وفي القرآن الكريم:" ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر للجوا في طغيانهم " المعجم الوجيز.

وصور الشاعر (الغل) مجرى مائيًا يفجره بقوة، لتسقي البشر غلا وحقدًا وتعاسة أبدية.

وكما صور الشاعر واقع الوطن والأمة باللون الأسود موحيًا بالظلم والاستبداد والشر والفساد والقهر والطغيان، نجده في مواطن أخرى من قصائده يرسم باللون الأسود صور معاناته الذاتية، وإحساسه بالفقد والغياب، فالشاعر يبحث عن حبيبته التي تضيء له الحياة، فهي النور الذي يغمر حياته فيبدد الظلام، وهي الدفء الذي يبدد صقيع قلبه، وهي الربيع الذي يهز خريف حياته وهي " شذا الروح " كما يصفها في قصيدة بهذا العنوان حيث يقول مستدعيا ظلال اللون الأسود:

وكنت كروضة جرداء
لا مـــــاء ولا شجـــر
وحيـــن تعانــق القلبان
داعـــب عـــوده الوتر
وطــاب العشق والسهـر

استخدم الشاعر ظلال اللون من خلال التشبيه فصور حياته روضة جرداء بلا ماء ولا شجر، والجملة في ذات الوقت كناية عن الإحساس بالفقد والوحدة والغربة..

ثم في تخييل بديع يجسد القلبان يتعانقان، لإضفاء نوع من دفء المشاعر التي فقدت، ثم هاهي السعادة تعود لترفرف من جديد كما يعبر عنها من خلال الكناية في قوله:

داعب عوده الوتر وطاب العشق والسهر

ويسترفد الشاعر عناصر الطبيعة والكون راسما فيها صورا حزينة تعبر عن ذاته الوحيدة حين تلفه الوحدة والصمت بهواجس الموت والخوف مما يحرك الحزن

الدفين في قلبه فلا يجد سوى اللون الأسود معبرًا عن إحساسه بالكآبة من هموم ذاته، وآلام الثكلى، والمكلومين حيث يقول مستخدما تداعيات اللون الأسود [١]:

حين يجن الليل وترخى كل الستائر
أقبع وحدي...
حيث الصمتُ... الموتُ... الخوفُ سحابات الأفكارُ
ينبعث الحزن الأبدي النائم في قلبي... قبري
أسمع أنات الثكلى وعذابات المكلومين

فهاهو الحزن ينتفض بعد النوم في القلب الذي أصبح قبرًا لا قلبًا. وهي صورة رمزية تعكس من خلال ظلال اللون الأسود في (الصمت.. الموت.. الخوف.. الحزن.. القبر.. العذاب....) سلسلة من الآلام المتلاحقة، والمعاناة.

وفي قصيدته " التتار يجتاحون بغداد " يرسم شاعرنا صورًا عديدة لما ارتكبه التتار ببغداد من جرائم وانتهاكات، يتخيل فيها المتنبي يلملم أوراقه بعد أن عاين أنقاض المدينة العريقة، فلم يعد يسكنها سوى الغرابيب بدلالاتها التشاؤمية، ولونها الأسود حيث يقول [٢]:

وبغداد قد أحرقتها الصواريخ،
والمتنبي يعاين أنقاضها،
ويلملم أوراقهُ،
والنواسي يبكي،
و تبكي القوافي،
ولا شيء غير الغرابيبِ،
فوق الخرائبِ، لا شيء غي الدمار،

(١) الديوان الأول: احبك رغم أحزاني ص ٢٥
(٢) الديوان الخامس: آخر القابضين على الجمر ص ٢٤٧

فالغرابيب هنا إما كناية عن الخراب الذي عمَّ البلاد، أو كناية عن هؤلاء المستعمرين المهلِكين، أو هو من قبيل التورية، حيث يدل اللفظ على معنيين القريب المعروف، والبعيد المراد وهم التتار.

وهكذا يشكل الشاعر بلونه الأسود وتداعياته دلالات مختلفة تكشف عن إحساس عميق بما يحاك للأمة، وما تعيش فيه.. وما أصابها على امتداد عصورها، وحتى حينها.

الدلالات التعبيرية للون الأبيض في شعر فوزي عيسى:

اللون الأبيض: "[١] هو أول الألوان البسيطة، ويمثل الضوء الذي بدونه ما كان يمكن رؤية لون كما يقول ليوناردو دافنشي "، فهو رمز للطهارة والنقاء والصدق، وهو يمثل " نعم " في مقابل " لا " التي يمثلها الأسود، الصفحة البيضاء التي ستكتب عليها القصة.. إنه يمثل البداية في مقابل النهاية. [٢]، كما يرمز الأبيض إلى الصفاء والغبطة والنقاء والطهر والعفاف والسلم [٣]

وقد وضعت العربية لهذا اللون عشرات الألفاظ التي تحدد صفاته ودرجاته فقال العرب لون أبيض، وأكدوه بقولهم:" وابيض يَقَقٌ، ولَهَقٌ، وصَرَّحٌ، ولِياحُ، ولَياحُ ووابصٌ وحضُيّ وقضهْبٌ... وقَهْدٌ "[٤].

ويمثل اللون الأبيض في شعر فوزي عيسى طرف المعادلة الثاني (الخير/الشر) أو (الضياء/الظلام) أو (نعم/لا)، ويأتي اللون الأبيض مناقضاً للأسود بدلالاته

(١) ينظر: اللغة واللون للدكتور أحمد مختار عمر ص ١١١
(٢) اللغة واللون ص ١٨٥ – ١٨٦
(٣) ينظر: الصورة الشعرية والرمز اللوني للدكتور: يوسف حسن نوفل ص ٣٣، والصورة الشعرية واستحياء الألوان للمؤلف نفسه ص ١٦
(٤) ينظر: قاموس الألوان عند العرب للدكتور: عبد الحميد إبراهيم ص ٢٤

المحزنة الكئيبة، حيث تدور معظم الدلالات المرتبطة بهذا اللون في شعره حول التفاؤل، النقاء، الجمال، الصفاء.

ويلاحظ أن فوزي عيسى لا يستعمل الأبيض بلفظه المباشر، وإنما يفتح بظلال اللون وسائل تعبيرية من شأنها إيجاد إطارات جديدة تختلف عن المعهود في شعره، وربما هذا أيضًا يعكس إحساسا آخر بعدم التفاؤل أو لنقُل خشية التفاؤل ؛ فهو لا يلجأ إلى اللون الصريح الذي يوحي مباشرة بالمعاني السابقة للون ,ويظهر هذا في جمله التعبيرية " (خيوط الشمس – كنت البدر والفجر – ستثمر بالنور – وجه النهار – فيرسل ضوء القمر شلال ضياء – ومن بحار الشمس – وفي كل فجر شهي الضياء تزهو بها القمار – يبتسم في خدره القحوان – أضيئوا الدرب بنور العقل – كان المطر يقبل وجه الأرض – تمنحك السوسنات مفاتيحها – ليولد فجر جديد –.....) وهكذا فإن ظلال اللون الأبيض ترمز في مجملها إلى الصفاء والنقاء، وهي تدبيج فريد يضيف إلى التزيين باللون أو ظلاله لونا من التشخيص والحركات التي تجعل الصورة حية ناطقة، ونقرأ قوله[1] :

نحن الصعاليك، ننظم للعشق ملحمة،
نتعلق دومًا بخاصرة الشمس،
نشرع بواباتنا للهواءِ،
ونبقر بطن الخرافةِ،
ليولد فجر جديد...
وننعم بالصبح والمطر المتساقط عبر الحقول

حين يجسد الشمس فاتنة يتعلق بخصرها، فهو يستخدم ظلال اللون الأبيض، وحين يكنى عن الحرية والانطلاق (نشرع بواباتنا للهواء– ونبقر بطن الخرافة – ليولد فجر جديد – وننعم بالصبح و.....) لا يجد إلا الهواء النقي الصافي، والخلاص من السواد ليحل مكانه الفجر والضياء وكل هذا من تداعيات الأبيض.

(١) الديوان الخامس: آخر القابضين على الجمر ص ١٥١ – ١٥٢

ويلاحظ أن المطر حين صوَّره الشاعر أسودًا كان كناية عن جحافل الاستعمار والفساد والشر، أما حين يتساقط نقيًا عبر الحقول فهو كناية عن النماء والسعادة...

ومن ظلال الأبيض التي تحمل دلالات تشبيهية تنم عن الترف قوله: (١)

وقينة تشنف الآذان
بصوتها الجميل...
يضحكن عن جمان(٢)
يسفرن عن بدور

حيث يشبه الأسنان في بياضها باللؤلؤ، ويشبه الوجه في ضيائه وبياضه بالبدر.

هذا.. ونرى تداعيات اللون الأبيض في مقابل تداعيات اللون الأسود من ظلمة، وضياع وقهر وظلم وباس، وعجز فالبياض يرمز للنور والتحرر والحلل في قوله: (٣)

يا وطنًا تحكمه الدهماء !
إن طال الليل فلا تحزن
سأعود إليك وفي قلبي
شلال ضياءْ

فعودة الشاعر تؤذن بانقضاء الظلم والظلام والعجز، ليحل الضياء والأمل والحرية. وقد رسم الشاعر تدبيجًا فريدا أيضا من خلال الطباق بين ظلال الأبيض الذي يرمز إلى النصر والحرية، ونقيضه الأسود الذي يرمز به إلى الاستعمال وطول مكثه جاثما على صدر الأمة.

(١) الديوان الرابع: لغة بلون الماء ص ٧٤
(٢) الجمان: اللؤلؤ ومفرده جمانة
(٣) الديوان الرابع: لغة بلون الماء ص٢٧

الدلالات التعبيرية للون الأخضر:

الأخضر هو لون الخصب والرزق في اللغة العربية، يقول تعالى:﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ... ﴿٦٣﴾﴾(١)، وهو لون النعيم في الآخرة، يقول تعالى: ﴿عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ... ﴿٢١﴾﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾﴾(٣)، كما أنه " لون الغضاضة وعدم النضج "(٤)، والأخضر " عنوان الحياة والصحة ويرمز إلى الكون والطبيعة والربيع والمرح والسرور والشباب "(٥).

وقد وضعت العربية لهذا اللون ألفاظا أساسية، فقالوا: يكون ذلك في الحيوان والنبات مما يقبله. وهو أخضر وخضور وخضِر وخَضير ويَخْضيرُ ويخضور.. ومن الخضرة في ألوان الخيل أخضر أحم، أخضر أدعم. وأخضر أطحل، وأخضر أورق (٦).

ويأتي اللون الأخضر في المرتبة الثانية في شعر فوزي عيسى، ويدور حول دلالات الخصب والنماء والبهجة والخير والتفاؤل، ويستعمله بدلالاته المباشرة وغير المباشرة في الشواهد الآتية:

(عشبا أخضر – ورياض وواحة خضراء – يا روضتي – قد علقا في نجادين من خضرة – والمطر المتساقط عبر الحقول – لجنان وارفة خضرا – أغلقت العينين الخضراوين – فأنت الواحة الخضراء – ينمو العشب والزهر – وعلى

(١) الحج آية ٦٣
(٢) الإنسان آية ٢١
(٣) الرحمن آية ٧٦
(٤) اللغة واللون للدكتور: احمد مختار عمر ص ٧٩
(٥) الصورة الشعرية والرمز اللوني للدكتور يوسف حسن نوفل ص ٣٣
(٦) قاموس الألوان عند العرب للدكتور: عبد الحميد إبراهيم ص ٦٦، ٦٧

ساعدك اسمي منقوشا بمداد أخضر – واخضوضرت في راحتي المروج – تبرجت حقول الشمس – يرتعد اللون الأخضر – لنستبق إلى منابت الكلأ).

ونرى الشاعر يرسم أحيانا صورة متفائلة لوطنه الذي أحبه، واهتم بواقعه المرير وحلم بمستقبله الحر وهوائه العليل، ففي قصيدة " اشتهاء " يرسم الشاعر صورة زاهية للنهر، الذي يرمز عنده للوطن النبيل الأخضر الذي عاش فوق أرضه وتنفس هواءه، وأعجب بحضارته فتراه يقول(١):

تبرجت حقول الشمس، وأورق الجماد
واخضوضرت في راحتي المروج(٢)
وأشرعت نهودها الرياح
والرماح أنبتت سنابلا،

ونلاحظ أن التشخيص والحركة التي يضفيها التدبيج بالألوان البيضاء والخضراء، تعطي إيحاءات كنائية وتخييلية، تعمق إحساس التفاؤل الحذر بين جنبات الجمل التعبيرية.

وعلى الرغم من الآهات والأحزان التي تملأ صدر الشاعر، إلا أنه لم يتخل عن ذلك المعنى الذي يعطي للحياة ألوانا مختلفة ، فحب الشاعر للمرأة يعني الحياة، والمرأة عنده هي الحياة بكل مقوماتها، فهي واحته الخضراء التي تعيد الحياة لتلك النفس المعذبة، فهي الأمل، وهي الرجاء وهي الخلاص والملجأ من ذلك الواقع المؤلم، فيقول:

فأنت الواحة الخضراء بعد مشقة السفر
وأنت الروضة الغناء تؤتي أطيب الثمر

(١) الديوان الثالث: ثقوب في ذاكرة النهر ص ٧٩
(٢) جمع: مرْجُ: وهي الأرض الواسعة ذاتُ نبات ومرعى للدواب،

فتشبيهه للمرأة بالواحة الخضراء يدل على استحسانه للنظر إليها، وميل نفسه وراحته فيها ؛ فاللون الأخضر يوحي بالراحة والهدوء والسكينة.. وحين يصفها بالروضة الغناء فهو يشير إلى عطائها الحسن الوفير.

وفي قصيدة " شذا الروح " تشكل المرأة لدى الشاعر صورًا كثيرة، فهي الوطن الذي يفر إليه يلتمس فيه الأمن، وهي الرياض المزهرة والواحة الخضراء، وهي عطر النفس وشذاها، وهي رمز الطهر والنقاء حيث يقول: (١)

أنت لي موطن أفر إليهِ
ورياض وواحة خضراءُ
أنت للنفس عطرها وشذاها
أنتِ للروح طهرها والنقاء

وأكاد أستشعر أن رؤية الشاعر للمرأة على هذا النحو تعكس نقاء وصفاء من نوع مختلف، وهو الطهر والنقاء الأسري، والبيئي، الذي وعى من خلاله قيمة المرأة ودورها العظيم في الحياة أمًا كانت أو أختًا أو زوجة.....

الدلالات التعبير للون الأحمر وظلاله في شعر فوزي عيسى:

اللون الأحمر.. لون يرتبط في اللغة العربية بالمشقة والشدة من ناحية أخذًا من لون الدم، وبالمتع الجنسية من ناحية أخرى (٢) ؛ كما يشير إلى النشوة والتمرد والحركة والحياة الصاخبة والغضب والانتقام والقسوة(٣).

ويرى بعض علماء النفس – بعد تجاربهم على الألوان – أن الأحمر يثير روح الهجوم والغزو والافتنان والشجاعة والثأر ن ويخلق في الإنسان نوعًا من التوتر العضلي(٤).

وقد وضعت العربية عشرات الألفاظ التي تعبر عن ماهيته وقيمته ومدى نقائه ودرجة تشبعه فقالوا: أحمر، وأكدوه بقولهم: أحمر قاني، ذريحي، وأحمر باحريٌّ

(١) الديوان الرابع: لغة بلون الماء ص ٥٩
(٢) اللغة واللون ص٧٥
(٣) الصورة الشعرية والرمز اللوني ص ٣٣، وينظر اللون: لمحمد يوسف همام ص٩
(٤) ينظر: اللغة واللون ص ١٥٤

وبحراني، وناصع، وناكع، وأحمر نكِع، وأحمر عاتك، وأحمر أكلف ن وأحمر فقَّاعيٌّ وأحمر قَرِفٌ(١).

ويأتي اللون الأحمر رابع الألوان استعمالا عند الشاعر فوزي عيسى، وفيه تتباين الدلالات التي يدور حولها تبايناً لا يخالف ما عليه هذا اللون في الوقع، تستدعي أكثر السياقات الحزينة التي يرد فيها اللون الأحمر أو تداعياته التي ترتبط بالدم والجراح والمعاناة والحزن والأسى والقتل والاغتصاب، وتتناثر مفردات اللون الأحمر وظلاله في شعر فوزي عيسى فنراه يقول:

(دائرة حمراء – مدنًا حمراء – دم من مداد – المروج الحمر – رمان – ياقوتة ظما – كهان يريقون الدماء – يسبح في دمهم – يستحل الفرات دما – هذه الأرض خضبتها الدماء – بحر الدم – هل تتكرين دماه في شفتيك – أرى تحت الرماد وميض نار).

وتشير الشواهد السابقة إلى تنوع دلالات اللون الأحمر فهو يرمز إلى الدماء أو الشفاة أو الياقوت أو الرمان... ويستخدم بدلالته الأولى " الدماء " إلى تصوير نكبة بغداد واجتياح التتار لتلك المدينة العريقة.. حيث يقول(٢):

وحده، لص بغداد،
يمرح في طرقات المدينةِ، في حلل الموت،
يصعد فرق تلال الجماجم،
يشرب من ثقب جمجمةٍ لوثتها يداه،
خمور انتصاراتهِ ن ويزين شاراتهِ
بجماجم أطفال بغداد ن يسبح في دمهم
(يستحل الفرات دما)

(١) قاموس الألوان عند العرب ص ٥٠ – ٥٢
(٢) الديوان الخامس: آخر القابضين على الجمر ص ٢٤٤– ٢٤٥

في الأسطر السابقة نلاحظ تعانق الأسود والأحمر فاللص يتشح بالسواد، والموت أسود، وتلال الجماجم سوداء، والدم أحمر، ليس دما بل بحر من الدماء يسبح فيه.وجميعها كنايات عن القتل واغتصاب المدن قبل الأعراض، وفرح زائف بانتصار مشين !! فماذا تراه يقول لو أعاد الوصف مرة أخرى على بغداد العريقة نفسها، وعلى أهلها وأطفالها،ونسائها، وشيوخها... ولكن ليس من التتار هذه المرة، بل من قادة الديمقراطية ونصرة حقوق الإنسان...من الأمريكان، فيا لسخرية الأقدار. وكأن التاريخ يعيد نفسه... ولا يريد للعروبة قومة.

وفي إدانته للواقع السياسي والعربي إزاء ما يحدث من اليهود من تدنيس أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين، يصور هذه الأرض وما أصابها حيث صُبغت باللون الأحمر، لون دم الشهداء من أطفال ونساء وشباب وشيوخ، حيث يقول(١)

هذه الأرض خضبتها الدماءُ فاحرثوها ينبت بها شهداءُ
واسمعوها تُرْجِع اليوم لحنًا يعربيا تزهو به الأرجاءُ

وإذا لاحظنا الكناية عن الاستشهاد في (هذه الأرض خضبتها الدماء) حيث يختلط لون الطين بلون الدم، فإننا لا نغفل تلك الصورة البديعة التي صور فيها امتلاء الأرض بدماء الشهداء بالخضاب الذي يزين صاحبته، فالاستشهاد فخر يتمناه كل إنسان... ثم يعود ليصور كثرة القتلى على الأرض الطاهرة بالزرع الذي يطلب الحرث ليترعرع وينمو فتيا قويا يواجه الأعداء.. فهي صرخة قوية في أذن هؤلاء المشاهدين الذين جُعل الوقر في آذانهم، وباتوا يستسيغون لون الدم، وصوت الرصاص... ثم هذا اليأس الذي يطل من الكلمات، والحزن والألم على ما يصيب هذا البلد الطيب وأهله.

وفي إشارة إلى الواقع البغيض الذي يمقته الشاعر، وينعكس على أغلب شعره، نجده يسجل مشاعره إزاء هذا الواقع في قصيدة ألوان حيث تتداخل فيه الأمور،

(١) الديوان الخامس: آخر القابضين على الجمر ص ٢٥٩

وتتشابك فيه خيوط الأحداث من حقائق وأكاذيب، ويتلون فيه التاريخ حسب مقتضى الحال فيقول: (١)

يخرج من هيكله الليليّ
ليرسم دائرة حمراء
بلون العشب
وشقراء بلون الزنج
يرى مدنًا حمراء

فنلاحظ تعانق الألوان في قصيدة تحمل اسمها (ألوان) حيث الليل بسواده المعهود الذي يوحي بما يحمله هذا الخروج من الخوف والرعب، إنه خرج ليسجل تاريخا جديدا يحوي الموت بشتى صوره، فهذه الدائرة توحي بانغلاق على غاية واحدة وهي القتل..وتتعدد صور التاريخ في كل مكان والغاية واحدة فلن يترك أخضرا ولا يابسا يمر بكل البلدان،يبث ألاعيبه وأكاذيبه، يتلون بكل الألوان، ينشر سمه في كل مكان، تتحول كل بقعة يمر بها إلى دماء..

إن تنوع الألوان في القصيدة يعكس دلالات نفسية، وقومية لدى الشاعر المهموم بقضايا أمته، وواقع وطنه.

وتتنوع دلالات اللون الأحمر في قصيدة " ظمأ " حيث تتجاوز الياقوتة معناها الحسي المباشر لترمز إلى الحرية التي يجتهد الشاعر للبحث عنها فلا يجدها إلا في صوب المروج الحمر والتي سوف تمنحه ما بخلت به من قبل، فتأمل قوله: (٢)

ياقوتة ظمأى.... ورمان...
يناجز في معاقله الرماح

(١) الديوان الثالث: ثقوب في ذاكرة النهر ص ٩٠
(٢) الديوان الرابع: لغة بلون الماء ص ١١، ١٢

فيستبقْ هذا أوان إغارة الخيل..
النصال توهجت
والغيث معقود بساحتها
فبادر... وانطلق صوب المروج الحُمْر
تمنحك الذي بخلت به من قبلُ
تشهر كأسها فأَرق دماءَكَ واعتبِقْ

ففي استعارة دقيقة يرمز إلى قيمة الحرية، فيصفها بالياقوتة النادرة التي يسعى إليها الجميع، ولا يحظى بها إلا القليل منهم.. أما الرمان الأحمر فيشير إلى صعوبة الوصول إلى الياقوتة وسط هذا الكم الهائل من المتشابهات والمتناقضات، فليس كل أحمر ياقوتا، ومع ذلك فالكل يحارب عله يفوز، وبين هذا وذاك يدعو إلى الانطلاق صوب الحرية (المروج) بإراقة الدماء الحمراء (الاستشهاد)، وحينئذ تبرز الياقوتة نقية لتنعم بها بعد طول انتظار. وهكذا تؤدي الألوان في القصيدة دلالات متنوعة تجمع بين التضحية والفداء وبين النصر والحرية، وقد عبر الشاعر عنها تعبيرا يمس الوجدان ويصل إلى المعنى المراد بصدق إحساس، وصدق تجربة.

الدلالات التعبيرية للون الأصفر في شعر فوزي عيسى:

اللون الأصفر – كاللون الأحمر – من عائلة الألوان الساخنة، وهو يمثل قمة التوهج، والإشراق، ويعد أكثر الألوان إضاءة ونورانية، فهو لون الشمس واهبة الحرارة والحياة والتفاؤل والضياء، وهو لون – وخاصة الفاقع منه – ينشط الذهن

ويسر الناظرين[١]، فقد قال تعالى: : ﴿ ... إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾[٢]

أي: تعجب الناظرين فإذا نظرت إلى جلدها يخيل إليك أن شعاع الشمس يخرج من جلدها. [٣]

والصفر كغيره من الألوان لا يحمل الوجه الواحد، فدلالاته متعددة، وكما يحمل دلالة الدفء والنشاط والحيوية والسطوع والنورانية، يحمل أيضا دلالات مغايرة لذلك تماما، فيعبر به أحيانا عن الحقد والحسد والضغينة، والخيانة، والغيرة. ويستخدم في مواضع أخرى دالا على الخريف والبؤس والقحط والحزن والذبول والموت والألم والشحوب والانقباض..... [٤]

ويأتي اللون الأصفر خامس الألوان استخداما عند الشاعر ، وتظهر الصفرة وصفا لأشياء مادية وأخرى معنوية، وفي الحالين لا تخرج عن إثارة دلالات محزنة، كما هي السمة المميزة لاستخدامات الألوان عند فوزي عيسى.

ومن مفردات اللون الأصفر وظلاله في شعره: اللغات الصفر – صفراء تذهب عن لياليك الحزن – يورق في أزمنة الجدب الصفراء – حقل القمح – يحمل حنطته).

ففي مفتتح ديوانه " لغة بلون الماء " يقول الشاعر: [٥]

لغة بلون الماء...

(١) ينظر: اللون في الشعر العربي قبل الإسلام " قراءة ميثولوجية " – لإبراهيم محمد على – ص ٩٥

(٢) البقرة آية ٦٩

(٣) ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ص ٤٥٠

(٤) ينظر: الصورة الشعرية والرمز اللوني ص ٣٢

(٥) الديوان الرابع: لغة بلون الماء ص ٥، ٦

ترضع من غمامات الرياح،
ومن بحار الشمس...
تسكنني، وتدفع زورقي...
لتواجه الجرذانَ، والكهَّان،
والعسس المدجج باللغات الصُّفرِ..
تحفر خلف سد الليل... مجرى...
يطفئ النارَ التي اشتعلت
بحقل القمح...

بحكم دراسته الأدبية كان لا بد للشاعر من موقف، ووقفة تجاه لغته التي تزحف وتعلو عليها كل اللغات محاولة استئصالها كما يزحفون بجنودهم وأسلحتهم وعاداتهم، يفخر الشاعر بلغته الصافية النقية التي ترضع من غمامات الرياح وبحار الشمس تماماً كالماء الذي لا لون له، ويتلبس الشاعر بهذه اللغة ثم يجعلها تسكنه، ويصبح هو وهي شيئا واحدا استعدادا لرحلة المواجهة والكشف بين الجرذان والكهان والعسس باللغات الصفر؛ فهي لغة – كما يقول – تبتعد عن الظلام والغموض والشك وتتصادم مع كل غامض حتى لو كان نسقًا موروثًا.. وقد لعبت ظلال الألوان الأبيض، والأسود والأحمر مع الأصفر بظلاله ليرسم ذلك المعنى الذي أراده الشاعر.

وفي قصيدة طليطلة يقف الشاعر ليبكي أطلال وطنه الذي أصبح نخَّاسًا يبيع بنيه، ويستحل دماءهم، ويضن عليهم بالكفن مما يلجئه إلى الشعور بتهاوي الحلم المصري، وإلى الانسحاب إلى خمره المعتصرة من كرمة الآخرين حيث يقول مستخدمًا اللون الأصفر: [1]

قم هاتها... فالحـــلم شاخ وما وهنْ
صفراء... تُذهب عن لياليك الحزن !

(١) الديوان الثالث ثقوب في ذاكرة النهر ص ٢٣

فالصفراء هنا كناية عن الخمر، وقد دبج الشاعر بين اللون وتداعياته وظلال الأسود، فالحلم الذي شاخ، من تداعيات اللون الأصفر كناية عن اليأس الذي ملأ قلبه، والليالي تشير إلى اللون الأسود الذي يغلف الآمال، والأحلام فلا تكاد تظهر.

الدلالات التعبيرية للون الأزرق:

لا يعد اللون الأزرق من الألوان الشائعة الورود عند فوزي عيسى، فهو يحتل المرتبة السادسة في قائمة الألوان المستخدمة في شعره، ويكاد يحصر الشاعر اللون الأزرق في إطار الماديات.

ومن مفردات اللون الأزرق في شعره: تجليات النورس الأزرق – كل هذا الفضاء يفضي إلى الزرقة – حين احتضنت بزرقة عينيك وامنح البحر لونه.

وفي قصيدة النورس الأزرق تبدو لنا صورة الثغر والبحر، وعلاقة العشق القوية بينهما، وهنا ندرك مدى ارتباط الشاعر بالبحر.. هذا الارتباط القوي الذي جعل الشاعر لا يفارق البحر لحظة واحدة،كما نلاحظ غلبة اللون الأزرق على القصيدة ؛ فهو لون ماء البحر، ولون الفضاء الذي يفضي كل شيء فيه إلى الزرقة فتراه يقول: (١)

كل هذا الفضاء يفضي إلى الزرقة
كل لون يسابق الريح

(١) الديوان الثالث: ثقوب في ذاكرة النهر ص ٧١

الخاتمة

الحمد لله.. والصلاة والسلام على خير الهداة، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان وبعد..

فقد تناولت هذه الدراسة موضوع التدبيج البديعي، وموقف القدماء والمحدثين من تسميته، ووظيفته في النص الأدبي، حيث قدمت الدراسة تحليلا بلاغيا للوظائف اللونية في شعر الدكتور فوزي عيسى فكان مما أسفرت عنه ما يأتي:

١- أشارت الدراسة إلى دور الصور اللونية في إثراء التجربة الشعرية بالدلالات النفسية والمجازية، والخروج بها من الإطار المحدود إلى اللامحدود، كما أسهمت في الكشف عن جوانب من تجربة الشاعر ورؤيته لعالمه.
٢- تأثر الشاعر بالبيئة والنشأة الريفية، فظهر ذلك في استخدامه لصور الطبيعة بألوانها الزاهية المبهجة.
٣- أشارت الدراسة إلى أن الذات الشاعرة كانت متوترة تبحث عن الاستقرار والراحة دون جدوى، كما أنها في معركة غير متكافئة مع الواقع المرير الآخر الذي يبدو في ملامح الصمت والخوف و الموت وسحابات الأفكار التي استخدم لها الألوان القاتمة والسوداء.
٤- أثبتت الدراسة – من خلال الدلالات التعبيرية للألوان المختلفة – أن لذات الشاعر أبعاد أخرى ؛ فهي ليست الحالمة المستسلمة لحلمها، ولكنها الواعية، والمفكرة التي تسعى إلى التغيير وتتطلع إلى الأفضل.
٥- تمثل الألوان التي استخدمها الشاعر عنصراً مهما من عناصر تشكيل العمل الأدبي باعتبارها وسيلة جوهرية لنقل تجربة الشاعر وتصويرها بدلالات متعددة من شأنها تنبيه المتلقي ودعوته للتأمل.

٦- أثبتت الدراسة مقدرة الشاعر على استخدام رسم صور رائعة يتضافر فيها اللون الصريح وظلاله، وما يوحيه من خيال خصب ، تصبح فيه الألوان فاعلا رئيسا يعيد الشاعر من خلاله تشكيل الواقع، وبعثه فنًا جديدًا.

٧- ارتكزت معظم رموز الشاعر اللونية على فكرة الثنائية المتناقضة أو المتطابقة، مع تقويتها بالتشبه التمثيلي أو الكناية، كما في استخدامه للألوان الدالة على الخير والشر، أو الحياة والموت، أو القوة والضعف.

٨- وأخيرا.. تشير الدراسة إلى ضرورة الانفتاح على الألوان ودلالاتها المختلفة، وعدم حصرها في ذكر لونين أو أكثر بقصد التورية أو الكناية، فاللون بذاته وظلاله أو تداعياته تكفي لتدبيج النص وإشاعة لون من البهجة، وتنبيه ذهن المتلقي لدلالاته التي تختلف من شاعر إلى آخر بل من قصيدة إلى أخرى مما يثري العمل الأدبي، وبعث الحياة في البلاغة العربية.

ومن خلال تلك الدراسة وجدت التدبيج أو الألوان في شعر امرئ القيس وأبي تمام وغيرهما مما يستحق الدراسة، وتتبع الظاهرة اللونية لديهم، وما تسفر عنه من دلالات تعبيرية، وربما كانت الموازنة بين الاستخدامات الدلالية للألوان بين التراث والمعاصرة هي الأكثر إثراء للمكتبة البلاغية... والله المستعان.

المصادر والمراجع

- **القرآن الكريم**

الأعمال الشعرية الكاملة للدكتور فوزي عيسى، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ط١، ٢٠١٠ م، وتضم خمسة دواوين هي:

- أحبك رغم أحزاني ١٩٨٦م
- لدي أقوال أخرى ١٩٨٩م
- ثقوب في ذاكرة النهر ١٩٩٧م
- لغة بلون الماء ٢٠٠١م
- آخر القابضين على الجمر ٢٠٠٩م